محاضرات مقياس المناهج النقدية الغربية المعاصرة

ماستر 2 أدب مج1 الأستاذ/ عدنان فوضيل

المحاضرة السابعة: المنهج التفكيكي

تقديم:

ولد دريدا عام 1930 لعائلةٍ فرنسيةٍ في الجزائر العاصمة، عانى في حياته من التمييز والاضطهاد، إذ تعرض للطرد مرتين من المدرسة، يمكن القول إن هذا النوع من التجارب لعب دورًا كبيرًا في إصراره على التفكير بأهمية الآخرين المهمّشين. رُفض انتساب دريدا في المدرسة العليا مرتين، في حين كان زملاؤه كسارتر وسيمون دي بوفواروأغلبية المثقفين والأكاديميين الفرنسيين، قد بدؤوا حياتهم المهنية، ولكن تم قبوله في النهاية في سن التاسعة عشر.

كان ميل دريدا للعمل في الفلسفة ظاهرًا إلى حدٍّ كبيرٍ، وتأثر بنيتشه وهايدجر وسوسور وليفيناس وفرويد، يقر دريدا بمديونته لكل هؤلاء المفكرين في تطوير منهجه للنصوص، والذي أصبح يُعرف باسم التفكيكية. أصبح دريدا في عام 1967 فيلسوفًا ذا أهميةٍ عالميةٍ، حيث نشر ثلاثة نصوصٍ بالغة الأهمية (القواعد، والكتابة والاختلاف، والكلام والظواهر)، ومنذ نشر هذه النصوص وغيرها من النصوص الرئيسية بما في ذلك (شبح ماركس، وهبة الموت، وسياسة الصداقة)، انتقل التفكيك تدريجيًّا من احتلاله دورًا رئيسًا في أوروبا، إلى أن أصبح مصطلحًا مهمًّا في السياق الفلسفي الأنجلو أمريكي..

<u>المصطلح:</u>

المصطلح في مستواه الدلاليّ العميق يدل على تفكيك الخطابات والنظم الفكرية، وإعادة النظر إليها بحسب عناصرها، والاستغراق فيها وصولا إلى الإلمام بالبؤر

الأساسية المطمورة فيها. يقول الفيلسوف الفرنسي جاك دريدا (Jaques Derrida) في حوار مع كريستيان ديكان:

"إن التفكيك حركة بنيانية وضد بنيانية في الآن نفسه، فنحن نفكك بناء أو حادثا مصطنعا لنبرز بنيانيه وأضلاعه وهيكله ولكن نفك في آن معا البنية التي لا تفسر شيئا فهي ليست مركزا ولا مبدأ ولا قوة فالتفكيك هو طريقة حصر أو تحليل يذهب أبعد من القرار النقدي"[1]

"إن التفكيك تناول النص بحد ذاته وليس المؤلف ولا تاريخه، يبدو كأنه يتصرف كالشكليين الروس، والنقاد والشعريين الذين يطبقون البلاغة على الأدب، لكن من أجل إظهار أن مجموعة الوجوه البلاغية لا تقول شيئاً آخر غير النص "ثم يستكمل حديثه بعد ذلك بقوله إذن الموضوع يتعلق بتفكيك الوحدة الشكلية والتماسك البنيوى وكذلك الدلالة."

إن التعريف السابق يركز على النص فى حالة تفكيكية وليس فى حالة تركيبه، وعليه فإن تفكيك النص يقصد به الإعتماد على دواخل النص واضعين فى الإعتبار أنه لا توجد حدود نهائية لدلالات النص- الدال والمدلول- والعلامات بشكل عام- من ناحية ثانية فإن التفكيكية ترفض الثوابت التى سعى إليها نقاد السيميولوجيا فى محاولة لتحديد ماهيه محددة ثابتة للدال والمدلول والعلامة بشكل عام، إذ أنه لا توجد قراءات ثابتة معتمدة، إذ ليس هناك مركز ثابت للمعرفة أو التناص، بل هى متغيرة، فالنص المقروء له نصوص أخرى سابقة عليه ظهرت فيها ما ظهر فى هذا النص الجديد، وعليه فإن نقاد التفكيكية، يعترضون على كل ما عدا التركيز على النص وقراءته من الداخل، إذ لا يوجد شىء خارج النص- كما يقول دريدا- ومعنى ذلك رفض التاريخ الأدبى التقليدى ودراسات تقسيم العصور، ورصد المصادر، لإنها تبحث عن

[1] حوار مع جاك، دريدا، كريستيان، ديكان: مجلة الفكر العربي المعاصر، العددان 18-19 (1982)، ص:254 عن عبد الله، إبراهيم، وآخرون ،معرفة الآخر، مدخل إلى المناهج النقدية الحديثة، ص:114.

مؤثرات غير لغوية أى عن حقائق غير لغوية وتبعد بالناقد عن عمل الإختلافات اللغوية."

مبادئ التفكيكية:

1- تقويض الميتافزيقا:

تعتقد التفكيكية بأن الثقافة الغربية أعطت العقل على مرّ العصور، سلطة النقد الأدبي والبحث عن معنى الكلام أو النص من خلال التركيز على الكلام المسموع وتفضيله عن الكتابة، بمعنى التركيز على الصوت، وانطلاقًا من هذه الفكرة، صُنِّفت اللغات العالمية ترتيبًا تنازليًّا تقبع فيه اللغات التي تقترب فيها الكلمة المكتوبة من الشكل الشفوي لها، في أعلى التراتبية اللغوية، في حين أن صياغة الكلمة وكتابتها بشكل علامةٍ مطبوعةٍ، يعطيها استقلالًا عن المألوف، ويسمح بإعادة دراستها واستنباط المزيد من الدلالات والمعاني لها، وهنا يبرز جوهر الاختلاف، حيث استمرار العلامات بإظهار معانٍ وتفسيراتٍ فريدةٍ، ومن هذا المنطلق، تُنادي التفكيكية بضرورة قلب التمركز حول العقل في الخطابات الفلسفية، ما يُعطي الخطابات المزيد من المعاني ويُحررها من القولبة الثابتة، فتمسي دائمة التجدد بالمعاني.

2- الإرجاء أو التأجيل Différance

ضد ميتافيزيقا الوجود، يجلب التفكيك مفهومًا يسمى الإرجاء أو التأجيل Différanceأو المباينة بتعبير عبد السلام بنعبد العالي. يستخدم جاك دريدا هذا المفهوم لوصف أصل الوجود والغياب. الاختلاف لا يمكن تعريفه، ولا يمكن تفسيره من خلال "الميتافيزيقيا من الوجود". في الفرنسية، يعني فعل différer معنى "التأجيل" ومعنى "الاختلاف". وهكذا، قد يشير الاختلاف ليس فقط إلى حالة أو نوعية الوجود باعتبارها مؤجلة، ولكن إلى حالة أو نوعية مختلفة. قد يكون

الاختلاف هو الشرط الذي تم تأجيله، وقد يكون هو الشرط الذي يختلف عنه .قد يكون الفرق هو الشرط الأساسي للاختلاف.

إذا كان مفهوم الاختلاف Différence يعني بالنسبة إلى جاك دريدا أصل الحضور والغياب، فإن مفهوم Différance لا يمكن تعريفه، ولا يمكن فهمه من خلال ميتافيزيقا الحضور. في الفرنسية وكما سبقت الإشارة، كلمة Différance تعني التأجيل أو الإرجاء، وقد تعني أيضا الاختلاف. يؤكد دريدا أن الاختلاف Différence هو حالة التعارض بين الحضوروالغياب7.

أما مفهوم Différance أي التأجيل أو الإرجاء، فيعني بالنسبة إلى جاك دريدا تلك المفصلة بين الكلام والكتابة، وبين المعنى الداخلي والمظاهر الخارجية. طالما يوجد معنى، فإن الاختلافDifférence موجود هو أيضا.8

3- مركزية اللوغوس Logocentrism

يشير جاك دريدا إلى أن مفهوم "لوغوسنتريزم "Logocentrism يحوي كلمتين؛ الكلمة الأولى هي لوغوسlogos ، وهي كلمة يونانية تعني مبدئيا اللغة والخطاب والقانون والعقل. أما الكلمة الثانية، فتعود إلى الكلمة اللاتينية centrum التي تفيد التمركز بالإضافة إلى اللاحقةism ، وتعني نمطا أو مذهبا. ويرى دريدا أن مفهوم "لوغوسنتريزم "Logocentrism يعني أن اللوغوس يعتبر هو المبدأ المركزي للغة والفلسفة، بيد أن هذا المفهوم وضع جانبا دائما ولأسباب جوهرية كل الأفكار الحرة حول أصل ومكانة الكتابةwriting.9

وفقًا لنظرية لوغوسنتريزم، يقول دريدا إن الكلام هو الدال الأصلي للمعنى، وتعتبر الكلمة المكتوبة مشتقة من الكلمة المنطوقة. الكلمة المكتوبة هي بالتالي تمثيل للكلمة المنطوقة. وتؤكد اللوغاريتمية أن اللغة تنشأ كعملية تفكير ينتج الكلام، ثم إن ذلك الكلام ينتج بالتالي الكتابة. نظرية لوغوسنتريزم هي تلك الخاصية المميزة

للنصوص والنظريات و أنماط التمثيل و أنظمة الدلالة التي تولد الرغبة في وجود علاقة مباشرة وغير معتدلة ومغنية بالمعنى والوجود والمعرفة.10

ويرى عبد المالك مرتاض بأن دريدا يعتبر نظرية لوغوسنتريزم؛ أي مركزية اللوغوس أو مركزية العقل بأنها تلك النظرية القائلة إن الإشارة اللغوية تتكون من دلالة تستمد معناها من فكرة ذات دلالة أو مفهوم ذي معنى. وتؤكد نظرية لوغوسنتريزم على كون الدال يوجد في وضعية خارجية عن المدلول. تصوَّر الكتابة على أنها جزء خارجي عن الكلام، كما يصوَّر الكلام على أنه شكل خارجي للفكر. ومع ذلك، إذا كانت الكتابة مجرد تمثيل للكلمة، فإن الكتابة ليست سوى "دال على دال". وهكذا، وفقًا لنظرية لوغوسنتريزم، فإن الكتابة هي مجرد شكل مشتق من اللغة التي تستمد معناها من الكلام. تؤكد نظرية لوغوسنتريزم على أهمية الكلام، باعتباره أساسيًا في تطوير اللغة، ولكن أهمية الكتابة تبقى مهمشة.11

يوضح دريدا أنه وفقًا لنظرية لوغوسنتريزم، فإن الكلام قد يكون شكلا من أشكال الحضورpresence ، لأن المتحدث حاضر في نفس الوقت الذي يعتبر فيه المستمع حاضرا. لكن الكتابة قد تكون نوعًا من الغيابabsence ؛ لأن الكاتب ليس حاضرًا في نفس وقت حضور القارئ. قد تعتبر نظرية لوغوسنتريزم الكتابة بديلاً عن الحضور المتزامن للكاتب والقارئ.

إذا كان القارئ والكاتب حاضرين في وقت واحد، عندها سيتواصل الكاتب مع القارئ من خلال التحدث بدلاً من الكتابة. وتؤكد نظرية لوغوسنتريزم بالتالي أن الكتابة هي بديل للحديث، وأن الكتابة هي محاولة لاستعادة وجود الكلام .ويصف دريدا نظرية لوغوسنتريزم بأنها "ميتافيزيقا الحضور"، والتي تحفزها الرغبة من أجل "المدلول المتعال12."Transcendental signified

المدلول المتعال هو الدال الدي يتجاوزكل الدوالsignifiers ، وهو دلالة تتجاوزكل العلامات. المدلول المتعال هو أيضا مفهوم مدلول أو فكر يتجاوز أي دال منفرد،

لكنه متضمن من خلال كل محددات المعنى. يرى دريدا بأنه من الممكن تفكيك "المدلول المتعال "Transcendental signified من خلال اختبار المسلمات التي تشكل أساس ميتافيزيقا الحضور." metaphysics of presence

4- الأثر Trace

يحمل فكر الاختلاف معه فكرة الأثر .trace والأثر هو الشيء الذي تختلف عنه العلامة. الأثر هو الجزء الغائب من حضور العلامة، يقول دريدا: "الأثر لا يعني فقط اختفاء الأصل عنه، يعني هنا في الخطاب الدي نتبناه والمسار الدي نتبعه، أن الأصل لم يختف، إذ إنه لم يتكون يوما إلا في مقابل الأصل؛ أي الأثر الدي يصبح هنا أصل الأصل."13

كل دال اعتبر حاضرا في الفكر الغربي يحمل بداخله أثر دال غائب .وبالتالي، فالدال لا يعتبر حاضرا بشكل كلي ولا غائبا بصفة قطعية. يقول الدكتور عصام عبد الله إن" :الأثر هو ما يشير وما يمحو في الوقت نفسه، يشير دريدا إلى امحاء الشيء وبقائه محفوظا في الباقي من علاماته ويقوم عمل دريدا على بعث طاقة التعبير الحية في المعنى الآخر (المهمش) لهذه المفردات، والتأكيد عليه بقوة بحيث يعود يواجهنا كلما ورد ذكر الكلمة المتضمنة له14."

الأثر هو لا أصل الأصل. الأثر هو كما يقول جاك دريدا: "الأصل المطلق للمعنى بشكل عام. [...] الأثر هو الاختلاف المؤجل différance الذي يحيل إلى الدلالة15."

ويرى دريدا أن الأثر هو أدنى شكل من أشكال الحياة التي تعتبر من زاوية طر فينومينولوجية تكوين وإعادة إنتاج المعنى والهوية. الأثر يحيل إلى أشياء أخرى، وهو مكون مركزي في الطروحات الفكرية لجاك دريدا المنتمية أساسا لفكر الاختلاف. هذا، علما أن معاني الأثر هي استنتاجات وخلاصات لأشياء أخرى كما أن الأثر يعتبر بنية معقدة من الحضور والغياب. بنية الأثر هي نفس بنية الكتابة في

كونهما يقومان بنفس الوظيفة المتمثلة في المحافظة على المعنى ونقله عبر الزمان والمكان.

5- الكتابة

حسب الباحث رسول محمد رسول، فإن مفهوم الكتابة لدى دريدا يرتبط بمركزية علم اللغة التي تسيطر على العقل البشري، ويستدل الباحث بما عبر عنه جاك دريدا حين قال:

نطلق كلمة لغة على الفعل والحركة والفكر والتروي والوعي واللاوعي والخبرة والانفعال، ولكننا نميل الآن إلى أن نطلق كلمة كتابة على كل هذا وأشياء أخرى؛ لا نطلقها فقط على الحركات البدنية لعملية التدوين في الكتابة الأبجدية، والكتابة التصويرية، والكتابة الرمزية، لكننا نطلقها أيضا على ما يجعل الكتابة ممكنة، ونطلقها كذلك فيما وراء الوجه الدال، على الوجه المدلول عليه نفسه، وعلى كل ما يمكن أن يؤدي عموما إلى التدوين سواء كان حرفيا أم لا حتى لو كان ما توزعه الكتابة في الفراغ مختلفا عن الصوت البشري مثل السينما والرقص إلى جانب الكتابة التصويرية والموسيقية والنحتية، وعلى كتابة ألعاب قوى، وكتابة عسكرية وسياسية، إذا ما نظرنا إلى التكنيك الذي يتحكم في هذه المجالات".16

مصطلح الكتابة الأولى أو الكتابة الأصلية arche-writingاستعمله جاك دريدا لوصف شكل للغة التي لا يمكن تصورها داخل ميتافيزيقا الحضور. الكتابة الأولى arche-writingهو الشكل الأصلي للغة الذي لا يستمد من الكلام، يقول الأستاذ محمد شوقي الزين في هذا السياق:

تستمد الكتابة (اللسان، نسق العلامات، منظومة الرموز) من الكـــتابة-الأصـلية (archi-écriture)نظامها في الاشتغال. يمكن القول بأن الكـــتابة-الأصـلية "ثقاف" الكتابة التي هي "ثقافة" لأنها تنخرط في زمن التشكيلات الثقافية الكبرى

من إبداعات تجد جسدا لها في الكتاب (livre)واللوحة الزيتية والمعزوفة الموسيقية، إلخ17".

هذا، فإن دريدا من خلال اقتراحه لمفهوم "الغراماتولوجيا "Grammatologie يحاول لفت الانتباه إلى أهمية الكتابة، ويطالب بالتالي إعادة اكتشاف وظيفتها، باعتبارها متفردة في سماتها وخصائصها. الكتابة في منظور دريدا ليست فقط علامة دائمة الحضور، كما أنها تستطيع تجاوز السياق الذي ولدت فيه وتنتقل بالتالي إلى سياقات أخرى وتتفاعل فيها. الكتابة إذن وعلى عكس الكلام تستطيع الانتقال بسلاسة من سياق إلى سياق آخر، ومن نظام علامات إلى نظام علامات آخر. وتشير الأستاذة مديحة دبابي إلى أن الكتابة باعتبارها إضافة وملحقا supplémentبالصوت كما يرى ذلك روسو، وكما يؤكد على ذلك دريدا، فالأصل يحتاج دائما إلى إضافة طبقا لاستراتيجية التفكيك التي تحتوي على عدة دلالات. من بين هذه الدلالات أن "الملحق أو الزيادة "supplément يحيل على شيء تتم إضافته، أو قد تكون غايته سد نقص ما. الملحق بإمكانه إعادة ترتيب نظام ما انضاف إليه أو قد يحل محله أيضا. والتكملة هي "زيادة على شيء ما واستبدال له" وهذه "التكميلية" يؤكد دريدا على أنها عامل أساسي في كتابة النصوص و انتشارها. إذن، فالكتابة في نظر دريدا هي عملية دينامية تكسر البنية المغلقة على معنى واحد والتكميلية هي استراتيجية أساسية في إعادة إنتاج النص من جديد. كل قراءة هي كتابة معادة18.(réécriture)

وبالتالي، وكما يؤكد الباحث على ذلك رسول محمد رسول، فمفهوم الكتابة لدى جاك دريدا هو مفهوم شاسع ومنفتح على فضاءات جديدة تجعل وجود الكتابة متحرّرا من سلطة القيود والثوابت التي تكبله وتتحكم في كينونته. الكتابة "وجود منظور وغير منظور"، و"وجود مرئي وغير مرئي" و"وجود مادي وغير مادي".19

تقترح "غراماتولوجيا" دريدا إذن أن الكتابة تنشأ، تماما مثلها مثل الصوت عن توتر دائم، وبالتالي فلا يمكن للكتابة أن تكون نسخة من اللغة المنطوقة .الكتابة ليست ذلك الشكل الخطي فقط، ولكنها أيضا التعبير عن الأثر ونحت هذا الأثر trace.الكتابة تقوم بتعميم المعنى وتقوم بإشاعته في مجال عام مما يستعصي ربطه بأي قصد أصلي. جاك دريدا يلح على أن الكتابة هي أصل اللغة.